يعد كتاب "العين" أول محاولة لحصر ألفاظ اللغة العربية، على نحو شامل و في إطار نظام منهجي واضح له أسس و قواعد مضبوطة، و يبدو أن كتاب "العين" كان طفرة نوعية و سابقا لأوانه، إذ لم تكن حركة جمع اللغة قد انتهت بعد من عملية استقصاء اللغة و تسجيلها بشكل تام، و لم يشاركه هذا السبق إلا "أبو عمرو الشيباني" في معجمه (كتاب الجيم)، إلا أنه خالف نهج "الخليل" الصوتي، إذ يرتب الكلمات الواردة في إطار الجذر الواحد ترتيبا داخليا على نحو ما فعل "الخليل" داخل المواد، و لم تحدث إضافة منهجية أخرى في بناء المعجم إلا في القرن الرابع الهجري الذي يعدّ أهم القرون في وضع المعاجم العربية.

تدين علوم العربية بالفضل لـ "الخليل"، فقد حصر موازين الشعر العربي، بوضعه علم العروض، و وضع طريقة الضبط بالشكل التي نستخدمها إلى اليوم، و شكلت آراؤه و أفكاره أسس أقدم كتاب في النحو لتلميذه "سيبويه"، وابتكر نظاما رياضيا لحصر مفردات اللغة، فاهتدى بحسّه الموسيقي إلى وضع أسس ترتيب المعجم ترتيبا أبجديا على أساس صوتي يعتمد على مخارج الحروف.

و ثمّة خلاف حول مدى إسهامه في "العين"، و ذلك القدر الذي فعله تلميذه "اللّيث بن المظفر"، و يبدو أن جهد "الخليل ينحصر في المقدمة، و وضع التخطيط العام للكتاب، و تطبيقه في الأبواب الأولى، أما "اللّيث" فهو راوية ما أعدّه "الخليل" و مؤلف باقي الكتاب.

1- أسس ترتيب المادّة اللغوية في كتاب "العين":

تمّ ترتيب المادة اللغوية في كتاب "العين" على حسب مخارج الحروف من الحلق، على النحو التالي:

[ع ح هـ خ غ/ ق ك/ ج ش ض/ ص س ز/ ط د ت/ ظ ذ ث/ ر ل ن/ ف ب م/ و أ ي].

أ- لقد علّل "اللّيث" حكاية عن "الخليل" تقديم العين على الحاء و الهاء، و ما لاحظه من تغيير الهمزة و الألف، فلم يبدأ بأيّ منها، و إنما بدأ بالعين، لأنه الصوت الحلقي الأول الذي لا يتغير في الأبنية الصرفية، و سمى معجمه باسم أول قسم فيه من كتاب "العين"، ثم تلاه ببقية أصوات الحلق، متدرّجا من أعلى إلى أسفل، فذكر باقي الحروف، حتى الحروف الشفوية، و ختم ترتيبه بأصوات العلّة و الهمزة. هذا هو الأساس الأول للترتيب الخارجي.

ب- أما الأساس الثاني، و هو خاص بالترتيب الداخلي، فينقسم إلى قسمين:

الأول: ترتيب الكلمات على أساس الحروف الأصول فقط، دون الحروف الزوائد، و ظلّ هذا المبدأ الذي وضعه "الخليل" في كتاب "العين" الأساس الذي بنيت عليه معظم المعاجم العربية.

الثاني: ترتيب الكلمات الداخلة تحت مادة واحدة على أساس الأبنية، فبدأ بالثنائي ثم الثلاثي (الصحيح و المعتل و اللفيف) ثم الرباعي، ثم الخماسي، والتزم هذا المبدأ أيضا عدد من المعاجم التي سارت على نهج "الخليل"، مثل تهذيب اللغة و المحيط و البارع، و غيرها.

ج- أما الأساس الثالث فهو التقليبات، إذ تنتج هذه الطريقة في الثنائي إمكانيتين فقط، مثل: ع د/ د ع. أما الثلاثي ففيه ستّة تقليبات، مثل: ك ت ب/ ك ب ت/ ت ك ب/ ت ب ك/ ب ك ت/ ب ت ك. أما الرباعي فعدد التقليبات فيه 24 وجها تقليبا، و في الخماسي تبلغ 120 وجها تقليبا.

هذه التقليبات ليست كلها مستعملة عند العرب، و لهذا أطلق "الخليل" على الصيغ التي وجدها فعلاً مصطلح (المستعمل) و على الصيغ غير الموجودة، و لكنّها ممكنة نظريا (المهمل)، و يلاحظ أنه يصدّر حديثه عن كلّ مادة ببيان ما استعمل من تصاريفها و ما أهمل، مثل:

«باب العين و الهاء و الجيم معهما عهج، هجع: مستعملان./ جهع، عجه، هعج، جعه: مهملات»، و قد حرص على ذلك كثيرا، إذ نجده دائما ينبّه على المستعمل و المهمل، ثم يبدأ في شرح التصريفات، الأول فالثاني فالثالث،... إلخ.

يضمّ كلّ حرف جميع الكلمات التي ورد فيها الحرف في أي موضع فيها، فإذا انتقل إلى حرف آخر استبعد الكلمات التي فيها الحرف المتقدّم، بمعنى أنه بدأ كتابه بحرف العين، فذكر جميع الكلمات التي تتضمن حرف العين في أي موضع منها، و حين انتقل إلى حرف الحاء ذكر جميع الكلمات التي تتضمن هذا الحرف، و لكنه استبعد الكلمات التي فيها عين، لأنه قد تقدّم ذكرها في حرف العين المتقدّم، و هكذا.

2- خطوات البحث عن الكلمة في كتاب العين:

بناءً على كل ما تقدّم يتبين لنا أنّ البحث عن كلمة ما في "العين"، يلزم تتبع الخطوات التالية:

- تجريد الكلمة من الحروف الزوائد، للوصول إلى المادة الأصلية (الحروف الأصول)، فإذا كانت الكلمة جمعا ردّت إلى الإفراد، و إذا كانت مضعّفة استغنى عن التضعيف لتحديد بنائها الثنائي أو الثلاثي أو الرّباعي،...إلخ.
- ترتيب حروف المادة الأصلية ترتيبا صوتيا وفق نظام "الخليل" الصوتي المشار إليه فيما سبق، فإذا كانت الكلمة مثل: لكع، فالبحث عنها في مادة: ع ك ل.

ثار خلاف حول أصالة هذا النّظام، فقيل إنّ "الخليل" لم يبتكره، و إنما تأثر فيه بالهنود في ترتيب حروف لغتهم السنسكريتية على هذا النظام، و لهذا لم يثبت بعد، فإذا سلّمنا به فإن طريقته في ردّ المشتقات إلى مادة واحدة تعدّ أصلا لها جميعا، و جهده في استقصاء الأبنية، الثنائية و الثلاثية و الرباعية و الخماسية، و إن تقدّمت عليه جهود في هذا سهلت مهمته، و توصله إلى طريقة تتحكم في حصر الصّيغة المختلفة للكلمة الواحدة فيما يخص طريقة التقليبات، فحدّد ما هو مستعمل و ما هو غير مستعمل في اللّغة، كلّ هذه الأمور جعلت عمله أساسا ارتكز عليه علماء اللغة و مؤلفو المعاجم الذين جاءوا بعده، فلم يخلُ كتاب في اللغة أو معجم من الإشارة إليه.

3- طريقته في الشّرح و الاستشهاد:

كانت طريقته في الشرح و الاستشهاد واحدة، إذ كانت البداية دائما بذكر المادة مجرّدة، و هذا هو الأساس الذي ارتضاه أغلب المعجميّين، ثم شرحها مجردة و مزيدة، و لم يحدْ عن تتبع مشتقات الكلمة و جمعها في موضع واحد، و كان يذكر الفعل و مصدره في مثال يبين معناه، فإذا كان مزيدا بيّن طرق زيادته، و يلحق بالمصدر الصفات إن وجدت. أمّا الأسماء فكان يبين وزنها و يشرحها و يهتم بإظهار علّة تسمية الشيء بذلك الاسم، و كيفية اشتقاقه و علّته، و ذكر صيّغ المفرد و الجمع، و إذا كان للفظ دلالات مختلفة أوضحها في عدّة استعمالات، و قد جمع في معجمه المستعمل الواضح و الغريب و النّادر، إلا أنه أولى المستعمل عناية أكبر في الشرح و التعليل.

لم يغفل ما عنى به أصحاب الرّسائل من حيوان و حشرات و نبات و مظاهر البيئة الطبيعية العربية، واستند في شرحه إلى شواهد من القرآن و الشعر و الحديث و المأثور، كما أورد عددا من لغات العرب و خصائصها، مثل: تميم و ربيعة و هذيل و غيرها.

4- رأي النّقاد في كتاب "العين":

تعرّض معجم "العين" لنقد عنيف، و كان للمتأخرين عدة مآخذ عليه، من أهمها:

- التصحيف، و الخطأ في الاشتقاق و التصريف.

- إهماله الضّبط، فإن قُبِل ذلك فيما لا يحتاج إلى ضبط، فإن أغلب المواد كانت في أمسّ الحاجة إلى ضبط دقيق، اتّقاءً للّحن و التحريف.
- وقوع خلط واضطراب في ترتيب بعض المواد، فلزم الاستدراك عليها.

5- قيمة الكتاب:

رغم الانتقادات الموجهة لكتاب "العين"، إلاّ أنّه لا يمكن إنكار قيمته، فقد سار على نهج "الخليل"، أي النظام الصوتي، و حصر مشتقات المادة، و تقسيم المواد وفق الأبنية، و تحديد تقليبات المادة، مع تعديل في بعضها كلّ من:

- أبي القالي في معجمه (البارع).
- و أبي منصور الأزهري في معجمه (تهذيب اللغة).
- و أبي بكر الزبيدي في كتابه (مختصر العين).
- و الصّاحب بن عبّاد في معجمه (المحيط).
- وابن سيده في معجميه (المحكم) و (المحيط الأعظم).